رواية «الرباط المقدس» تنفتح على «راهب الفكر»[49] يعيش حياة هادئة بين الكتب والورق، ويكرس أيامه للفكر والتأمل والتأليف ويريد أن يحيا أفكاره، ويخضع لها في سلوكه، حتى اشتهر أمره بين الناس، واحترموه، وأعجبوا بآرائه وأدبه واستقامته.

وفي أحد الأيام تلقى رسالة من فتاة في الثانية والعشرين من عمرها تطلب منه أن يسمح لها بمقابلته، لأنها تحب الاشتغال بالأدب وتريد أن تفيد من رأيه. فيتساءل في نفسه عما دفع هذه الفتاة إلى حب الأدب والفكر مع أنها في ريعان الشباب، «إنه يعرف المرأة التي تعطي الفكر حياتها هي ولا شك المرأة التي لم تجد رجلاً تمنحه هذه الحياة!..»[50].

ولكن بالرغم من شكوك «راهب الفكر» في صدق الفتاة فإنه يتنازل ويضرب لها موعداً، وتكون دهشته عظيمة عندما يجد نفسه أمام فتاة رشيقة، خارقة الجمال، في زهرة عمرها حقاً، فاضطرب أمره وقال في نفسه إن مكان هذه الفتاة ليس هنا، فمظهرها لا ينم عن أنها خلقت للاشتغال بالأدب، وإنما ينم عن أنها خلقت لتخطر في «حلبات السباق في أحدث الأزياء»[51]، تنثر في الهواء أحدث العطور، وتترك خلفها «في كل خطوة آلاف النظرات والحسرات والتنهدات»[52].

ولا تملك الفتاة إلا أن تبوح له بغرضها من الاهتمام بالأدب؛ فهي لا تحب الأدب، ولكنها مرغمة على حبه حتى تحافظ على حياتها الزوجية، وذلك لأن زوجها مغرم بالقراءة في كتب الأدب، وهي تخشى أن تكون قراءته هذه سبباً في حفر هوة سحيقة بينها وبينه، فيصير كل منهما يعيش في عالمه الخاص، ولذا فإنها جاءت تتوسل إلى «راهب الفكر» كي يعلمها كيف تحب الأدب بأي ثمن.

ويستمر الحوار بينهما فنعرف من خلاله أن الفتاة لعوب، وأن الراهب قد افتتن بها من اللحظة الأولى، وينشأ صراع عنيف في نفس الراهب بين قلبه الذي يحثه على الاستجابة لإغراء الفتاة، وبين عقله الذي يؤنبه ويدعوه إلى